مـــــالـك بـــن نـــبـــي (نهضـة العـالـم الإسلامـي في الـتـــــاريـخ المعـــــاصـــــر)

نورالدين ثنيو*

هذا البحث وإشكاليته

خاض مـالك بن نبي (١٩٠٥-١٩٧٣) تجربة النهضة الإسلامية بفكر ناهض، فقد استأنف بـحث مسألة النهضة الإسلامية مـن آخر انجازات الغرب المتقدم الناهض، ساعده على ذلك امتلاكه للغـة الفرنسية واطلاعه على الفكر الغربي المتقدم والنظر إلى العـالم الإسلامي المتخـلف. وفي الحالتين كـان يمتلك الأسلـوب الناهـض ليضطلع بالمهمتين معاً : نقد النزعة الإستعمارية ونقد الوضع الإسلامي والعربي المتخلف.

ومن هنا فرادة ونوعية فكر ابن نـبي في مسألة النهضة الإسلامية وسبل إحيائها أو بـعثها من جديد، خاصـة وأن النص الفرنسي للقرآن الكـريم أضحى موجودا ويمكن الإحالة إليه، في ثراء ترجماته وتنوعها. كما أن فكر مالك بن نبي وحياته التي سجلها بكل تفـاصيلها[1] هي أيضا جـزء من النهضة والإحياء الـذي تَطَلَّع إليه الرجل ليس لنفسه فحسب بل لإقرانه من الجزائـريين ولبقية المجتمعات الإسلامية التي أراد لها أن تعيش في مجـتمع إسلامي حديـث. فالمقاربـة هنا هي الـتي يطلق عليهـا بأنا – التاريخ، Ego- Histoire التي تَتَداولها المناهج المدرسـية في الجامعات الغربية للتعبير عن الرواية التـاريخية التي يَسْردها الفاعل والمثقف والصانع والمفكر، أي التاريخ كما يكتبه صـاحبه كأفضل سبيل إلى معرفـة ما تم فعلا أو ما قيل حقيقـة. عندما يكون الفاعل جـزء من الظاهرة، تكسب الـظاهرة شرعيتها وحُجِّيـتها في الحضور والتناول على ما جاءت به كتابات مالك بن نبي.

المقاربة التي نعالج بها فكرة وإشكالية النهضة الإسلامية عند مالك بن نبي، هي أنه صاحب قلـم واضح وأسلوب فرنسي سَلِس، جدير بـالفرنسيين أنفسهم، ويكتب على تنويعاتهم وانتقـاداتهم لمظاهر الحيـاة المعاصرة ، خاصة منهـا الإستعمار كظاهرة أفرزهـا النظام الرأسـمالي الأوروبي. فالحركات التـحريرية والتـيارات الاستقلالية يجب أن لا تبتعد من العـواصم الأوروبية لأن اللغة الفرنسيـة كما تعاطاها مالك بن

(*) كاتب و أكاديمي جـامعـة الأميـر عبد الـقـــــادر. الجـــــزائـــــر.

نبي قوة دلالية للإطـاحة بالأنظمة الاسـتبدادية والتعسفيـة والحكم الطاغي على ما عرفه التاريخي الفرنسي بـداية من الثورة الفرنسية الكـبرى وليس انتهاءً بالسيطرة الإستعمارية الحديثة والمعاصرة.

الوقـوف على فكر مـالك بن نبي كمـظهر من مظـاهر النهضـة الإسلامية الحـديثة والمعاصرة ليس من بـاب المقابلة والمقارنة أو حتى المفـاضلة بين الثقافتين أو الخطابين الغـربي والإسلامي التـقليدي عـند المفكـر المسـلم[٢] ، بقدر مـا أنه محاولـة لوصل المشاريـع النهضويـة التي جرت في عـالمنا الـعربي والإسلامي ولم تحظ بـالدراسة والبحث والمعـالجة المطلـوبة حـتى تحتل مكـانتها في الفكـر والوعي ونمـط السلوك الحضاري والمدني الذي تستحقه[٣]، لأننا بعد الإستقلالات العربية وجدنا كل الأنظمة العربية والإسلامية راحت إلى تـرتيب وضبط نظامها التعليمي والتربوي والبيداغوجي وفق النمط الغربي ولغاتها كأفضل سبـيل إلى الخروج من التخلف وحالة الركود التي كانت عليها المجتمعات الإسلامية سواء تلك التي تعرضت للاحتلال والإستعمار أم لا، لأن التخـلف ظاهرة تـاريخية لازمت الثـقافة الإسلامـية قبل أن يَطَـالها الإستعمار الرأسمالي والإمبريالي، كما وقع على سبيل المثال في الجزائر[٤].

المقاربة التي استندنـا إليها في هذا البحث، من أجل شرح مسـألة النهضة الإسلامية عنـد مالك بن نبي هي ربط المـوضوع بصاحبه، أي ما كـان عليه المفكر نفسه، الذي عاش وضعية القابلية للاستعمار فضلا على معايشته للوضع الإستعماري الفرنسي، رغم أنه لم يكن فرنسا. فقـد تَمَثَّل وتَصَوَّر وضعه وهو يعاني ويكافح ويناضل، كما تَمَثَّل نـفسه وهو يحاور ويجـادل ويناقش قـضايا المسلـمين والأوروبيين في لحظة زمنيـة معاصرة ينـدمج فيها الـكيانان ولـو نوعا من الانـدماج[٥] assimilation وهو المصطلح الذي احتل الخطاب السياسي والثقافي لأكثر من قرن في الجزائر المستعمَرة.

ونرمي من وراء هذا البحث إلى:

- التعرض إلى تجربـة جديدة لم يلتفت إليها مؤرخو النهضة الحديثة في عالمنا الحـديث والمعاصر وهي تجربة مـالك بن نبي، المفكر الجزائـري الذي خاض تجربة الإحياء بفكر فـرنسي، كما فعل المفكر الهنـدي محمد إقبالف[٦] الـذي خاض تجربة النهضة بفكر انجليزي وغيرهما كثير.
- إعـادة النظر في ظـاهرة الإستـشراق بالتـواصل بين الشرق والغـرب وليس بالاستبعاد والإقصاء[٧] .
- نهـضة الشرق بإمكـانية العلوم والتـقنيات الغربيـة وتطويرهـا بالتواصل والاحتكاك مع الإسلام والمسلمين.
- التاريخ المعاصر في عصر العولمة يلِحُّ على تخطي عصر النهضة والإلحاح على

مؤسسات الدولة النامية والدائمة[٨] .

دلالات النهضة الإسلامية في فكر مالك بن نبي

النهضة، الإصلاح، الإحياء، البعث، التطور والتقدم، مفردات لمعاني واحدة متقاربة، خاصة وأنها تمت في لحظة زمنية معاصرة، على ما تعامل معها ابن نبي باللغة العربية والفرنسية. وعند الدراسة والتحليل والوقوف على إشكالية النهضة يجب أن نستحضر كل ما له صلة بالمصطلح وما جاوره أو قاربه أو رادفه من معاني ودلالات، خاصة من لغة إلى لغة. لأن عملية بناء أو إعادة بناء وقائع وأحداث أو لحظات تاريخية تقتضي البحث في تراث كل التجربة التاريخية وبلغتها وإمكاناتها الدلالية حتى نُقَدّر قُدْرَة اللغة على الفعل. وفي الحالة التي نحن بصدد الحديث عنها وبحثها في سياقها التاريخي الذي عاصره ابن نبي، فإننا نجد أنه شرع في النهضة الإسلامية كما توفرها اللغة الفرنسية، لسان معاصر بصحبة القرآن الكريم المتوفر باللغتين كنص إلهي للناس كافة أو كما عبّر عنه هو بالظاهرة القرآنية[٩] ، أي دراسة القرآن وفق الفلسفة الظاهراتية[١٠] phénoménologique المعاصرة.

وفي الحالة التي أخذها ابن نبي كمجال للبحث، لا تقتصر على العرب فحسب، بل على كل المجالات الحضارية أو بَعْد الحضارة الإسلامية، في إيران بلاد فارس سابقا وتركيا الحديثة الدولة العثمانية سابقا، فضلا على البلدان الأسيوية حيث ينتشر الإسلام ويكثر المسلمون، أي أنه أخذ المجال واسعا كأفضل ما يمكن أن يعبر عنه الإسلام في الزمن المعاصر. ومعنى المعاصر هنا هو أنه يكشف من جملة ما يكشف المجال الواسع والمترامي الأطراف لواقع الإسلام والمسلمين في الوقت الراهن، والعرب هنا هم حالة من مجلة حالات إسلامية لا بل في المجال الأكاديمي والعلمي، كما فعل ابن نبي، الدين الإسلامي أضحى في التاريخ المعاصر مجالا علميا ومعرفيا يمكن تداوله كاختصاص واهتمام للجميع .

لم يقتصر تفكير مالك بن نبي على قضايا الجزائر التي ولد وترعرع فيها ، بل وسع مداركه لكي تشمل العالم الإسلامي على وجه الخصوص، لأن اهتمامه بالقرآن الكريم في البداية أقنعه بأن هذا النص الإلهي تتواصل معه كل الشعوب التي اعتنقته سواء أكانت عربية أو أعجمية. فالنص القرآني جدير بالدراسة وفق ما يقابله من شعوبه ومناطق الجغرافية التي وصل إليها . فالقرآن هو النص المرجعي الذي شيد الحضارة الإسلامية وثقافتها. والجزائر ليست في التحليل الأخير إلا جزء من الظاهرة العامة التي يجب أن نواجه بها الحضارة الغربية. فقد انخرط بن نبي منذ أن بدأ ينظر ويفكر في قضايا عصره أو ما كان يعرف بالنهضة والإحياء أو البعث في مقابلة النص الإلهي الذي لا يزال يحتفظ بالقابلية للنظر المتجدد لقضايا الشعوب ومسائلها

سواء تلك التي تعاني من الـتخلف مثل العرب في حاضرهم أو في المجتـمعات الغربية المتقـدمة على ما يفعل المستشرقون والمتخصصــون في الدراسات الشرقية من أقصاها إلى أدناها، وبكافة لغاتها ونظمها المعرفية .

وعليه، فقد امـتلك مالك بن نبي فكراً نـاهضاً منذ شروعه في بحـث مسائل النهضة الإسلامية، أي صياغة سـؤال النهضة وكيفية الإجابـة النظرية والعملية عليه[١١] . وكـان الجواب بالنـسبة إليـه هو العلوم الـغربية وآدابهـا في تجاوبها مع الـظاهرة القرآنية، أي كما تتبدى في دوائـر البحث العلمي الفرنسي. فقـد كان ابن نبي من فئة الـشبان التي تـوسلت اللغة الفـرنسية وأخـذ منها بـأكثر مـن طرف، أسعفته من الخـوض في تجربة الإحيـاء بما تَيَسَّر له من قـدرة على النظر، وكـما يَسَّرَتْه له اللغة الفرنـسية أيضا. لأنه كـان جزائريا مـسلما ينتمي إلى مجتمع مـستعمَر ومتَخَلف، ولكن في ذات الوقـت، كانت له أكثـر من فرصــة، بل على دوام مستمـر مع الحداثة الأوربية في الجزائر وفرنسا على السواء.

فـالعقل أو الفكر الناهض عند مالك بن نبي هــو جزء في الظاهرة النهضوية في العالم العربي والإسلامي، وليس ثقـافة يجب أن يصل إليها. فالـوجود الفرنسي في الجزائر أفرز ظاهرة يمكن التعويل عليها من أجل تخطي التَّخلف بل إزالة الإستعمار ذاته من الوجود. وبـالعودة إلى حياة ابـن نبي الأولى كما جاءت في مذكـراته، نلحظ جملة من العوامل ساعدته وأسعفته من أجل أن يجـاري المجتمع الأوروبي في ثقافته ومدنيته وطـريقة تفكيره. فمنذ البـدء كان حصيلة جمع الثقـافة العربية التـقليدية وأساسـها القرآن الكريم والثقافة الفرنسية التي أتته من التعليم والقراءة.

ونقصد بظـاهرة النهضــة التي شرعت إلى إقامــة معادلاتها الإجـتماعية والثـقافية والسيـاسية في واقع وحياة الأهالي المسلمين في الجزائر، هم الشبان الجزائريين الذين تخرجوا من المدارس الفرنسية سواء ذات التعليم العام العلماني أو المعاهد (المدارس) الفرنسية ذات التعليم الشرعي. وقد انفرد ابن نبي عن الجميع بإتقانه اللغة الفرنسية والتفكير بها حد صياغته لأسلوب الكتابــة بها جعلت كتاباته تنويعا عن الإشكاليات التي كان يطرحها البحث العلمي الفرنسي ومنافسا وخصما للمستشرقين ذواتهم، أي بتعبــير آخر يفيد نفس المعنــى، أنه ناقد للفكر الإستـشراقي من داخل منظومته ومن وحي ما كانت تجود به اللغة الفرنسية في لحظة إبداعاته الفكرية.

من مقتـضيات النهضة الإسلاميــة ضرورة إصلاح الدين ذاته، على ما فعل مثلا إبن عبد الوهاب في كتابه " كتــاب التوحيد " [١٢] ، وكما فعل محمد عبده في كتابه " رسالة التوحيد " [١٣] وكل الذين خاضــوا في مسألة تأخر العرب والمسلمين وتقدم غيرهم[١٤] ، فعلوا ذلك في لحظة زمـنية معاصرة تعني من جملة ما تعني عدم ترك المصطلح يمر

دون ملئه بالتجـربة التاريخية الكاملـة سواء زمن الإستعمار الذي له وقعه ورتابته الزمنيـة، أو بعد الإستعمار لحـظة بناء الـدولة ومؤسـساتها العـمومية وهـيئاتها الدستورية والقانونية، وهذا بدوره له مقتضياته في عملية التشريع وسن القوانين من وجهة النهضة الإسلاميـة التي جاءت أصلا في سياق مصارعة الإستعمار. والسؤال الذي يأخـذ وجهته الشرعية هو : إلى أي مدى يصلح مفهوم "النهضة الإسلامية" في مرحلـة بناء الدولة القومية أو الوطنيـة ، ونقصد بعبارة أخرى إلى أي حد يمكن قبول مفـهوم إسلامي عالمي بطبعه لأن دين ألهـي ولكل الناس مع تطلع شعوب ونخب إلى بناء أنظـمة وحركات وتيـارات أهلية ووطنية وقـومية، ذلك هو الـسؤال الكبير الذي احتاج من ابن نبي الجـواب عليه ، ويمكن أن نعثر عليه ليس كما قال صراحة، بل من قراءة أعماله باللغة الفرنسية، وليس كما ترجمت وجرى تداولها في خطابات الحركات الإسلاميـة المناهضة للقوميـة . وليس أيضا في معناه الـذي كرسه الخطاب الرسمي بعد تأميم فكر مالك بن نبي[١٥] .

وأول مـا يمكن العثـور عليه من إجـابات عـن سؤال النهـضة الإسلاميـة وشرعية استمراره بعد عصر الإستـعمار هو النقد. فالكـلمة لها دلالتها في فكـر الرجل عندما تعنـي إجراء تقويم متواصل على الأوضـاع السائدة بالـتعديل والتحويل والتغيير في كافة جوانب الـدينية والسياسية والإجتماعية وخـاصة الاقتصادية التي زاد عاملها ونالت من كل مظاهر الحياة، لا بل صار الإقتصاد هو معيار وشرط ومقياس التنمية بما في ذلك النهضة في حد ذاتها . إن النقـد في استخدامات ابن نبي وكل جيل الحداثة الأوروبية لا ينفك عن التجربة على صعيد التفكير وعلى صعيد الممارسة التي لا تكف عـن الصراع والحوار والجدل الـذي تعبر في التحليل النهـائي عن ديناميكيـة وحيوية النهضة بشكل عام.

مالك بن نبي في الحياة المدنية المعاصرة

من جملة مـا يتذكره ابن نبي السيدة بوي Buil التي حـفته برعاية فائقة لما توسمت فيه علامات النبوغ والذكـاء، كذلك الأستاذ في الكولويج الفرنـسي في مدينة قسنطينة السيد مارتن Martin الذي وصل معـه إلى حد إعارته سلسلة من كتب الأدب الفرنسي وخـاصة لروائيهـا العظام ...فضلا على أن تـربية ونشأة مـالك بن نبي توزعت بين مدينة قسنطينـة وحاضرة تِبِسَّة شرق الجزائر وبين عـدة عائلات أيضا خاصة عَّمه الذي كان محاسب رئيسي في شركـة فرنسية للتبغ ، بل والده كـان موظفا لدى الدولة برتبة خـوجة. وإذا كانت تربيته الإسلامية من الأمـور العادية، أي يأتيها الطفل بن نبي بتلقائية وعفوية وبالتواصل مع شيـوخها مثل مفتي قسنطينة صالح بن مهانا والأستـاذ في مدرستها المزدوجة الفرنسيـة –الإسلامية الشيخ صالح بن العابد ..إلا

أن ملامح وجهه ومـزاجه وروحه الخفيفـة على الأوربيين سـاهمت في التـعاطي مع الوسط الفرنسي وكأنه واحد من أفراده(١٦).

المـدينة التي نـاضل فيها عـبر التربية والتـعليم مدينـة متقدمـة، تتوفـر على أسباب النهضة، على ما ذكـر ابن نبي في مذكراته(١٧) وأخذ منها نصيبه من التعليم والتكوين والثقافة المعاصرة. كما أنها المدينة التي كانت تعبر عن التناقض والمفارقة بين سكان في مرتبة المواطنين وسكـان آخرين في مرتبة الأهالي، أي دون المـركز القانوني والسياسي الذي يجـب أن تفرضه الحياة في المدينة. وفي هـذا المجال أو الفضاء العمراني يجب أن يجاهد ويجتهد فيه الإسلام من أجل نهضته الجديدة في ربوع الجزائر.

الانتقال إلى مـرحلة ما بعـد الإستعمار، على ما عـاش ابن نبي ولاحظ، يـتطلب أيضا الانتـقال إلى دعم مسألـة النهضة الإسلاميـة كخيار إنســاني وعالمي، أي القدرة على التشريع للناس كافة كما يعبر عن الإسلام في ماهيته وكينونته الإلهية، يبقى فقط على الإنســان الموجود في مكان وزمان معين، أن يلتمس ويستخلص ما ينفعه وما يساعده وما يطوره في الحياة المعاصرة. فالصورة تستمد قيمتها من فعل الإنسان والدين يتأثر بذلك لما لقوة الزمن المعاصر وتاريخه من إحكام وصلة ورباط لا يمكن فصم عراه.

وبالعودة إلى الشواهد التاريخيـة ، سوف نجد أن الإصلاح الديني على ما خاض فيه علماء ونخب عربـية ومسلمة هو التعبير الأول في العصر الحـديث عن عالمية الرسالة الإسلامية بعـد ما تمكن في طرح النظم الطـرقية جانباً وتجاوزهـا إلى ما بعدها ليس بالتنكـر للماضي والسلف الصالح بل بالـعودة إليه في زمانه الأول كأفضل سبيل إلى عدم التقيـد بالمذهبيـات والفِرق والمدارس التـي التزمت بها الأمـة إلى حد التزمت ، انكسرت على إثرها شوكتها وضـاع منها سبيل الرشـاد لكي تدخل طريق التيه(١٨) على حد تعبير ابن نبي .

المصلح الجزائري ابن باديس .. كما يراه مالك بن نبي

يعزى مصدر إعجـاب ابن نبي بالشيخ المصلح والمـربي الإمام عبد الحميد بن بـاديس إلى أنه جاء إلى الإصلاح بـمعناه الواسع الـذي يستوعب المـدينة كلها بالقدر الذي تتخطى الطوائف والفـرق والمذاهب ونظم الطرق وشيوخ الزوايا، والاستفادة من كافة مرافق ومـؤسسات الدولة وخدمـاتها القانونية والإدارية والإجتماعية(١٩) . فقد كانت مدينة قسنطينة التي ولد بها وعاش تساعد على ما يـسميه ابن نبي على تجديد التحالف Le renouvellement de l'alliance، أي اللحظة التـي تتأهب فيهـا الأمة إلى نهضـة حديثـة تقيم فيهـا وشائج وأواصر مع مجالات ومنظومات وتقاليـد جديدة من وحي الفكر الحديث والمـعاصر وتقنياته، خاصة تلك التي تساهم بقدر كبير في الخروج من أسر الإستعمار والنظم الطرقية على السواء.

ابن بـاديس ، كما يراه ابن نـبي شخصية فـريدة ، قلّما تجود بهـا المجتمعات العربيـة الحديثة ، لأنها شخصية برسـم أو بصيغة الجماعة أو الأمة برمتها، أو كما قال ابن باديـس نفسه " أعيش للإسلام " و " أعيش للجزائر " [٢٠]. وفي هذا الصدد، كـتب بني : " عمومـا، فإن الحركـة الإصلاحية ، هي اليـوم من جديد [١٩٤٨]، في منعطف حـاد منذ رحيل آخـر وجوه الإصلاح الـذي مثّلاه : في المشرق السـيد رشيـد رضا وفي شـمال أفريقيـا الشـيخ ابن باديـس " [٢١] . فابن بـاديس شخصية إصلاحية ليس بمعنى ما ، بل بكل معاني الكلمة سواء في القاموس العربي القديم أو الحـديث ، لا بل حتى في مدلـول الكلمة الفرنـسية réformiste. ومن هنا، لا يمكن أن نستبعد أن سبب إعجـاب ابن نبي بابن باديس مرجعه إلى قدرة هذا الأخير على الجمع بين الـذات ومشروعه الإصلاحي الـذي نذر نفـسه أن يحققه ، لا بل هو عنوان حياته الـكبير الذي يضفي معـنىً على حياته التـي آلت وتماهت مع مشروعه الإصلاحي الكبير .

النهضة الإسلامية في تجربة ابن باديس لها مقتضياتها وشروطها وخاصة إمكاناتها أي الـوسائل والـوسائط الـتي تحقق ذلك، مثل الـصحافـة والجمعيـات والنوادي والمدارس وفرق الكـشافة والساحات العـامة وفضاءات الخضراء واللقاء الجماهيري التي تساهم كلهـا في الروابط الإجتماعية والانصهـار القومي[٢٢] . وعليه، فمثل هذه الحالة ، حتى ولو يشر إليها ابن صراحة، فإن مدينة قسنطينة، مثلها مثل سائر المدن الأخرى في الجزائر ، توفر إمكانية تجاوز الوضعية الإستعمارية بما تنطوي عليه من استعمار وقابليـة الإستعمار ، أي "النظريـة" التي ينوي ابن نبـي خوض التجربة فيها من أجل نهضة إسلاميـة منشودة ورائدة . فالوضعيتـان متقابلتان وظاهرتان للعيان،وقائمان على جدليـة التنافي وعدم الانسجام الـتام. ويكفي فقط الوعي الحاد بهما من أجل تجاوزهما إلى ما هو أحسن.

الأشـياء والكلمات يـنظر إليهـا ابن نبي على خلفيـة المفكر والمنـظر الإيديـولوجي. فالأوضـاع لا تستقيم لديه إلا بعد ما يعيـدها إلى أطرها ومنظوماته الفكرية والثقافية والتاريخية وما يمكن أن تحمله في المـستقبل، خاصة منه البعيد، لأنه إنخرط في بحث قضايا العالم الإسلامي في مـداه الطويل. ومن هنا يجب النـظر إلى مؤلفاته على أنها صيغ نهائية لأفكار تواصل معها إلى أن وفاه الأجل.. فهي من الأفكار التي انصهرت في التاريخ وللتاريخ أيضا على ما نفعل اليـوم معه، عندما نبحث موضوع "**النهضة الإسلاميـة في فكر وحيـاة مالك بن نبـي**" . وشاهدنـا على ذلك، عدم انـسياقه أو انخراطه في تنظيمات سياسيـة وعدم التزامه بمذاهب محـددة أو تيارات معينة. فقد كان مثقفا حرّا أقرب إلى التفكير البرجوازي حـتى وإن لم تستنده حاضنة اجتماعية

وخلفية المكانة والجاه والأصول العائلية. رائده منذ البدء التعالي عن الأوضاع والرنو إلى ما يمكن تجاوزها وتخطيها بسبب حالاتها المتناقضة وأوضاعها الشائكة.

والواضح في فكر التعالي والترفع لدى ابن نبي هو بالرغم من أنه سليل وزميل جماعة " الشبان الجزائريين " [٢٣] على غرار كافة المجموعات الشبانية التي ظهرت في العالم العربي والإسلامي والأوروبي، إلا أنه لم يكن عضوا من أعضائها الفاعلين ضمن الحركة، بل اختار دائما لنفسه المسلك الحر المناسب لمزاجه وروحه المتوثبة إلى مزيد من الحرية. فقد كان سياسته على خلاف ما يتعاطاه أعضاء " **فدرالية المنتخبين المسلمين** " [٢٤] التي كانت تعمل في نطاق مؤسسات الدولة الفرنسية لكن في جانبها الإستعماري عندما يتعلق بالجزائر. فنوع هذه السياسة ومصيرها على ما يرى ابن نبي أنها لا توصل إلى ما يحسِّن أوضاع الأهالي ويحل مأزق الوضع الإستعماري في الجزائر وفي فرنسا أيضا. هذا جانب من نضال الجزائريين حيال الإستعمار، أما الجانب الآخر والمتعلق بالنضال على صعيد الدين الإسلامي واللغة العربية لمواجه الإستعمار، كما تمثلته جمعية العلماء المسلمين، فلم ينخرط فيها ابن نبي، لأنه يضيق بها كما أنها لا تتسع لفكره أيضا. فشخصية ابن نبي حالة فريدة، يجب التعامل مع نقده للحركة الإصلاحية سواء منها السياسية أو الدينية معاملة من يريد أن يصحح أوضاعا وليس من يرغب في النقض والرفض والفضح. فهو في الحالتين لم يكن شابا سياسيا بالمعنى المبتذل للكلمة، كما لم يكن شيخا عالما بالمعنى التقليدي الديني للكلمة.

اختيار ابن نبي لإشكالية الإسلام والغرب ليس على خلفية دراسة جامعية بقدر ما هو اختيار حر لمثقف أراد أن يكون مفكرا ومنظرا للأمة الإسلامية قاطبة، لأن بحث موضوع الإسلام وقضايا التراثية والتاريخية وتحدياته الراهنة هي جوهر مسألة التقدم أو التأخر بالنسبة للعرب والمسلمين أينما كانوا، ومخبر وورشة التجربة لدى ابن نبي هي الجزائر التي توفر حالة التخلف لدى الأهالي المسلمين كما توفر حالة تقدم لدى المواطنين الفرنسيين في الجزائر. فالإسلام بطبيعته ومنطلقه الديني ولغته الإلهية التي سمحت له بأن يوجه ويرفع من تنظيراته واجتهاداته إلى كافة المسلمين ويجعل من الإسلام قضية القضايا وأساس النهضة الإسلامية في القرن العشرين. فهذا الوضع الخاص هو الذي استمد منه ابن نبي طريقة وأسلوب معالجه بإشكالية النهضة والإحياء واليقظة وما في حكمها ومقامها من إمكاناتها. وعن هذه الخصوصية يقول ابن نبي " إن الحركة الإصلاحية الجزائرية بالذات كانت في مجملها سجالا ضد النزعة المرابطية والطرقية كما كانت أيضا سجالا ضد النزعة الإستعمارية " [٢٥] .

فكر إسلامي بلغة " الآخر "

بناء على مـا تقدم من مبـاحث، يجب التنـويه بالفـكر النهضـوي الذي تم بـاللغة الفرنسية في حـالة ابن نبي وغيره في الجزائر، وبلغات أخرى في بلدان إسلامية أخرى على غرار تجربة محمد إقبال في باكستان وأحمد رضا في الهند. كلها تحتاج إلى إعادة تقييـم وقراءة ضمن المنـطلق النهضوي العـام الذي سبق ورافق وجـاء بعد الحرب العالمية الأولى في البحث عن التقدم والتَّمكن والسلام في العالم. وكانت رسالة الإسلام هي الدعوة الجديدة لكـل العالم وليس للبلدان التي كانت تعرف تحت مسمى البلدان الإسلامية أو ذات الأغلبية الإسلاميـة، سواء من جهة السُّكـان أو التاريخ. وهذا ما يحـدده مالك بن نبي على النحو التـالي: " كانت مرحلة ما بـعد الحرب العالمية الأولى فقط هي المرحلة التي بدأ فـيها الشعب الجزائري يخرج من وضعية ما قبل تاريخ لما بعد عصر المـوَحّدي والـدخول إلى عـالم القرن العـشرين. وأن الحركـة الإصلاحية والحركة الوطنية ظهرتا في هذا الوقت بالذات " (٢٦) .

فالتوكيد على التفكير والكتابة بلغة المستعمِر هي أيضا التفكير والكتابة بلغة موليير و روبيـس بيير و سان جوست و ماليرميه و رامبـو و فولتير ... وكل قادة الفكر الذين علَّموا البشرية مفاهيـم وأفكار العدل والمساواة والتسامح والـرشاقة والدقة والنظام والمدنية والعيش الكريم والفـرادة والتميز والشخصية المتَّـزنة .. فقد كانت النهضة الأدبية العربية والإسلامية مع أدباء وكتاب المهجر ، وعلى رأسهم جميعا جبران خليل جبران(٢٧) الأديب الـرقيق والمرهف وصاحب الأسلـوب في الكتابة باللـغة الإنجليزية ورشاقة الرسم المفعم بالعاطفة التي أضافت أجواءً وجوانبَ حيوية وخيالية إلى اللغة العربية والفكـر الإسلامي ، لم تعرفه البيئات العربية المحلية . وعليه، ومع تجربة بن نبي يمكن أن نرفد مـظاهر النهضة العـربية والإسلامية بالمـدن والثقافات واللغات الأوربية عندما يتقنها ويتفنن فيها عرب ومسلمون.

إن قراءة مـالك بن نبي في أعماله التـي صدرت أصلا باللغـة الفرنسيـة هي محاولة لإخراجه من طوق معرفي صـادره لعقود من الزمن العربي الفاسد ومحاولة من جهة أخـرى لإعادته إلى رواد النهضة الحقـيقية التي تعني مـن جملة ما تعني "أن نفعل كما فعل غيرنا "، ونقصد الغـربيون كأفضل جواب على سـؤال النهضة الكبير الذي طرحه المفكر القومي الكبير شكيب أرسلان : لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم ، كما أشرنـا من قبل. وقد كان الجـواب العملي والرد الواقعي لـدى مالك بن نبي، من خلال كتاباته ومواقفه وحياته العادية بأنه لم يكن متخلفا، بل امتلك الوعي الإحيائي القادر على تصـور النهـضة للـمجتمعـات الإسلاميـة للخـروج من مـظهر " الـقابلـية للاستعمار " .

إن تصورات بن نبي تماثل ما يتصوره الفرنسيون لمفهوم النهضة ومعانيها المختلفة، كما تماثل تصوراته لكافة الأفكار السياسية والفلسفية الكبرى التي تَمَثَّل معانيها بقوة. وقد ولَجَ ساحة الفكر والثقافة من أجل خوض تجربة وضع المجتمع المسلم على سكة النهضة والتقدم. فكافة المفاهيم والأفكار الحديثة والمعاصرة لا تحتاج عنده إلى ترجمة، بل يدركها مباشرة حتى في سياقاتها المختلفة، كما أنه كان يستوعبها ويعيها ويستخدمها في مناسبات ومجريات مختلفة ويُنَوِّع حتى في التعبير عنها ويبدع مصطلحات تناسب المقام وتفصح عنه.

وبهذا المعنى الذي يربط فيه ابن نبي حياته وفكره بالثقافة الفرنسية، يقول في الفصل المتعلق بالإستشراق من كتابه حول "الموضوعات الكبرى" : نَهَل جيلي من معين المستشرقين الغربيين ومن تلامذتهم الشرقيين أمثال أحمد رضا الذين جاءوا من بعدهم، وكانت بالنسبة لنا وسيلة لتعويض مركب النقص الذي انتاب الضمير الإسلامي حيال الحضارة الغربية " (٢٨) . وغني عن البيان، أن ابن نبي يضع اصبعه على الحقيقة التي طالما استُبْعدت من شروط وأسباب النهضة، ونقصد استيعاب الثقافة الفرنسية والأجنبية بصورة عامة، وأن الإبداع بها هو نوع من النهضة أذا استفادت من سياقها التاريخي وسلكت السَّمت السليم وخاصة الإصلاح الديني أو الإسلام الصحيح على حد ما كانت تسعى إليه الحركات الإصلاحية ذات التوجه الديني والرامية إلى تخطى النظم الطرقية وهياكلها العقيمة العتيقة.

ويضيف المفكر الجزائري في ذات السياق وفي ذات المعنى، أي السياق الذي كان بعض المستشرقين يؤكدون فيه على نبل ومكانة الحضارة الإسلامية في عهدها الريان والذي كان بمثابة الإكسير الذي يعالج به المسلمون ضعفهم حيال الحضارة الغربية القائمة في القرن العشرين، كما أن الإضافة التي يقدمها ابن نبي في هذا المعنى هي أن الوعي بقيمة وأهمية الثقافة والحضارة والعلم الغربي يؤكد الخاصية الذاتية لمن يحسن التحليل والتفكير، يقول : " إن جيلي ، على الأقل يدين للمستشرقين بفضلهم على احتفاظي بشخصيتي الإسلامية. قد اكتشفت ابن خلدون عندما كان عمري ما بين خمسة عشر وعشرين سنة من خلال ترجمة المستشرق الفرنسي سلان Slane، كما تعرفت على روائع الحضارة الإسلامية من خلال أعمال دوزي Dozy وأحمد رضا " (٢٩) .

القابلية للاستعمار من المصطلحات التي امْتَحَها وصكَّها ابن نبي للدلالة على حالة الإسلام والمسلمين في الجزائر والتي أغرت فرنسا على احتلالها عام ١٨٣٠ . وقد بقي الوضع المتخلف ما دامت مظاهر القابلية للاستعمار قائمة. **ثم صار المصطلح لا يفارق تحليلات وأراء ابن نبي لكي يوضح حالات وأوضاع لها صلة بالإسلام**

والمسلمين والعرب في صلتها بالاستعمار الفرنسي. الكلمة صاغها المفكر الجزائري بما تيسر له من قدرة على بلورة معاني ومفاهيم وأفكار من صلب الثقافة الفرنسية. لأن هذا المصطلح في صيغته التركيبية غير متوفر في اللغة العربية ولذلك ترجم إلى القابلية للاستعمار، بينما الكلمة في اللغة الفرنسية هي colonisabilité كلمة من شَطْرَين ، الشطر الأول يحيل إلى الاستعمار والشطر الثاني يشير إلى القابلية أو مرشح إلى وقادر على وهي تقنية سّهلت عليه إبراز حالة ما قبل وجود الظاهرة، فقط ترشحها، كما رشحت فرنسا إلى احتلال أو استعمار الجزائر.

امتلاك ابن نبي لناصية اللغة الفرنسية إلى حد أن صار مرشحا إلى صياغة مفاهيم وأفكار كبرى يسخرها في خطابه الفكري، هي التي حدت به إلى الكتابة في إشكالية النهضة الإسلامية على غير ما هو متاح ومتوفر في الثقافة العربية الحديثة. كان ابن نبي مفكر بالمعنى الذي يشير إلى فنان يصوغ ويبلور مفاهيم وأفكار وملاحظات في كل مناسبة من المناسبات التي يعرض فيها مسألة من المسائل ذات الصلة بالثقافة أو الحضارة. فهو مفكر فنان يبدع عند الشرح والحديث عن المشكلات التي تصادف العالم الإسلامي والعربي دائما في صلتها بالتاريخ والمصير. فوضعية الإنسان المتخلف وكذلك المجتمع يغري الآخرين بالتقرب إليه واستغلاله بما لا يملك من تصورات وأفكار وتقنيات ونمط حضاري ومدني حديث، أي انه خارج التاريخ لأن هناك من يريد أن يستغله ويحتله، فهو في حالة ضعف ووهن لا يقدر على شيء بقدر ما يحتاج إلى من يسعفه أو يستعمره. ولعلّ هذا ما قصده عن الإستعمار والقابلية للاستعمار في هذه الفقرة من كتابه "وجهة العالم الإسلامي ": " كان لسقوط الحاضرة الإسلامية سقوطاً للمسلم الذي فَقَدَ القدرة على بذل الخير وتجنب المنكر والشر. انتهك ضميره، ودخل المجتمع الإسلامي تدريجيا في حقبة ما بعد الموحدين[٣٠] حيث القابلية للاستعمار تستدعي الإستعمار . فقد كانت النظم الطرقية وشيوخها من المرابطين في العناية الأخيرة للرجل المريض المسلم، فلم تكن في وسعها شفائه ولا إنهائه "[٣١] . واضح أن حالة المريض المزمن لا تصدق كثيرا على المجتمعات والكيانات ذات الشخصية الاعتبارية والمقومات الحضارية ، بل تستدعي عند الرمق الأخير قوة أخرى بعدما يكون العرق النابض قد جف وأصابه الوهن.

وعليه، فإن القابلية للاستعمار ، كما بلورها وصار يستخدمها ابن نبي في مقام معالجة الوضع الإستعماري برمته، هي ملازمة لظاهرة الاستعمار نفسه. أي

وجود الواحد يؤمن بالضرورة وجـود الآخر، ولا يمكن إطلاقا أن يتعايشا معا، لأنه ضد التـاريخ وضد العقل وضد المعقـول من الأشياء العاديـة على ما كان يفكـر ويحلل ابن نبي. والحقيقة، أن قيمة وأهمية وجود هذا التلازم بين ظاهرة الاستعمار والقابلـية للاستعمار هـي التي تشرح لنـا عند البحـث والدراسة التاريخية ما هـو الإستعمار وما هو التخلف وأن الموضوع في مجمله مركب من الظاهرتين ، على مـا فعل مثلا عالم الاجتماع الفرنسي جورج بالانديه Georges Balandier في إبداعـه لمصطلح " الوضعية الإستعماريـة " التي يؤكد فيها على التداخل المضمـر والصريح بين مجتمع المسلمين القائم والمجتمع الأوربي الآيل دائما إلى التـشكل والتكويـن. وعلينا فقـط أن نتصور سـيرورة تاريخ على هذا النحو المربك والشائك.

إن القابلية للاستعمار في الخطاب الذي كان يتداوله ابن نبي هو مفهوم إجرائي له قابلـية التـواجد في أكـثر من حـالة ومـوضع من أجل الشرح والـتوضيح والـوقوف المعقـول على الأشياء والـكلمات. و إجرائـية المصـطلح تكمن في أنه مستخلص من تجربة تاريخية للإسلام والمسلمين ومن تراثهم الراكد المتَكلس، لم يـعد يقوى عـلى الموجهة والإبـداع، كما أن المصطلح يـتمتع بقدرة وقـابلية تقديم المعنى والفهم والوعي بالحقائق المعروضة للبحث والاستقصاء.

وبـتعبير آخر يفيـد ذات المعنى، أن مفهـوم القابليـة للاستعمار يفرض شرط الثقافة الفرنسيـة عند البحث في شروط و إمكانيـات النهضة الإسلامية، لأنها تؤكد فكرة ابن نبي أن الحـضارة تنتج بأدواتها وعدّتهـا وما يمكن أن يتوفر في سياق انطلاقـة الإحياء والـبعث والتقدم. مـا دام الإمعان في التفكـير في حالة مجتمع متخلف أدت إلى صك وبلورة مفهوم يليق به من أجل الوقوف على حالته وبسط كـافة الطرق والشروط من أجل تقدمه ونهـضته، معنى ذلك أن الثقافة الفـرنسية هي أيضا جـزء لا مناص منه من النهضـة الإسلامية، على ما جاء في كتابات ابن نبي نفسه.

الثورة .. سبيل إلى الحضارة .

رغم أن الحضـارة والثقافة والإيديولـوجية تنتمي كلها إلى عـالم الفكر وقد أظهر ابن نبي قدرة هـائلة في تحليل الـوضعية الإسلامـية والحالـة الإستعمارية ومـعالجة قضـاياهمـا وما يـمكن أن تنـسج من علاقـات وصلات بين الأحـداث والحوادث والوقائع، إلا أن المفكـر الجزائري ألح وبإصرار على ضرورة الـبحث الدائم عن لحظة تشـابك وانصهار الأحداث خاصـة منها ذات البعد الإنسـاني والعالمي ، مثل الثورة الهندية التي قامت عام ١٨٥٧ ضد الشركة البريطانية " الهند الشرقية " والتي عرفت

بثـورة السيبوي Cipayes وهي الثورة التي التمس منها السيد جمال الدين الأفغاني نضاله وكفاحه من أجل إحياء إسلامي معاصر ومناهض للاستعمار.

فـالثورة في مثال ابن نـبي هي الذروة التي تعبر عن حـالة الخلاص النهائي من أجل بدء مرحلة البناء الحضاري، على ما فعل الضباط الأحرار في مصر عام ١٩٥٢ . نهاية مـرحلة هي أيـضا بدايـة مرحلـة لأن الحدث أو الثـورة قد تم عبر تـشابك وتلاحم وتـداخل عدّة حقـائق واعتبارات تـاريخية عبَّرت ، في نهـاية المطـاف والتحليل، عن الحضارة ولو برسم التطلع إليها. وهذا ما أكده المفكر الجزائري في هذه الفقرة المعبِّرة فعلا عـن نظريته : " الإنســان، التراب والوقت أو الزمن لا تـسري وتجري كوحدات معزولة عن بعضــها البعض، ولكن ضمن تركيب وخلاصة تحقق بها الإرادة والقدرة لمجتمع متحضّر ومتمدن " (٣٢). الحقيقـة أن فكرة " التركيب " و " الصياغة المجملة " وتضافر الأسباب والعوامل هي أيضا من المقاربات والمناهج الجديدة التي يقتضيها الـدرس النهضوي وتتـطلبها محاولـة التقدم، لأنها تـوضح لنا حقيقـة ما هي عليه الأوضـاع وكيف يتم الخـروج من أسرها ومن مآزقها، ولـعلّ هذا ما يوضـحه ابن نبي نفسه: " ومن أجل أن حقق الشكل الجديد لحضارته، لا يزال المجتمع الإسلامي من قرن تقريبا يبحث بعناد وإصرار على الومـضة الدينية الضرورية لتركيبته التاريخية الحيوية " (٣٣) . وهكـذا ، فالثورة بما هي كذلك، وفي القـرن العشرين، عصر التشابك والانصهـار والتلاحم والإعتماد المتبادل تعبر عن إرادة قوية من أجل النهوض.. " إلا أن الثورة قـد صهّرت إرادة شعب، يـروم أن يتحرر لا محالـة من عبء ثقيل أي من التخلف وبكلمة واحدة من أجل ارتياد الحضارة " (٣٤) .

وهـذا ما يصـدق أيضا على الـثورة الجزائـرية (١٩٥٤-١٩٦٢) التـي يمكن إعادة رسمـها وتحديـدها وفق نظـرية ابن نبـي. وتُرَدّ بدورهـا إلى القضايـا الكبرى مثل الحضارة والـثقافة والديمـقراطية . فالثـورة عنده هي التعبير الأخـير لمسار تجربة يـريد القائمون بها أو عليها الخـروج من وهْدة التخلف والنكوص، لأن الوضـع العام بلغَ مرحلة من التنـاقضات والمفارقات تـعاونت عليه لحظة الـقابلية للاستعمار مع الإستعمار ذاته لكي تلح كلها على اندلاع الثورة . فمقدمات وبوادر الثورة التحريرية الجزائـرية بدأت حقيقة مع بـداية التاريخ المعاصر، في أعقـاب الحرب العالمية الأولى، عندمـا تيسر للتيار أو الحركة الإسلامية أو الإصلاحيـة والحركة الوطنية أو القومية النشاط ذي البعد أو المضمون الحضــاري ، أي القائم على مقومات الأمة الآيلة دائما إلى الـتشكل بقسماتها وملامحها المدنية وليس التراثـية عندما كانت تعبر عن القابلية للاستعمار.

وحتى نشير على قيـمة الزمن أو الوقـت في نظرية ابن نبـي في النهضـة الإسلامية أو

الحضارة التي يتوخاها المسلمون في بداية عهدهم بالحداثة الجديدة وكيف تمكن من توفير لحظة الثورة الجزائرية، يجب الإلحاح الدائم على تداخل الزمن الرتيب الذي يحكم المجتمع الأهلي المسلم والزمن المنتظم والمساوق للتاريخ بمدلوله الكبير الذي يسري على المجتمع الفرنسي ودولته. زمنان في لحظة واحدة .. ومن هنا الإشكالية التي تصدى لها رواد النهضة وعلى وجه الخصوص ابن نبي الذي عاش وعايش التجربة برمتها في عنفوانها وزخمها ورقيها.

أما التراب أو العنصر المتمم والمكمل للحضارة أو النهضة الإسلامية المعاصرة، فهو أيضا له مقوماته وخصائصه عندما يشير إلى الأرض التي احتلتها فرنسا عام ١٨٣٠، فهي فرنسية وجزائرية وعربية وبربرية ومسلمة توجد في منطقة شمال أفريقيا وعلى الضفة الجنوبية من المتوسط وليست بعيدة عن فرنسا الإمبراطورية والدولة القوية ذات الحضارة الإنسانية . فقد كانت الجزائر زمن الإحتلال الفرنسي أرضا أو ترابا واحدا لكيانين مختلفين أو مجتمعين متباينين لا يجمعها رابط قوي إلا البحث و التطلع إلى لحظة استقطاب عناصر الحضارة أو النهضة، كانت لحظة ما بين الحربين العالميتين أفضل وأنسب الفرص ... لكن !؟

أخيرا ، وليس آخرا، فالإنسان، أول عناصر الحضارة وأهمها، في الأرض المستعمرة تنازعه أكثر من صفة أو خاصية، فهو جزائري بالكامل، يصدق على الفرنسي كما يسري على الأوروبي الأجنبي الذي جاء إلى المستعمرة، والإنسان هو المسلم الذي لا يزال يخضع في كل مجالات حياته تقريبا إلى الشريعة الإسلامية، تقصيه مجموعة من الإجراءات والتدابير أطلقت عليها الإدارة الإستعمارية مدونة الأهالي ، قاصرة على المسلمين من دون المواطنين الفرنسيين، أي الذين يفتقرون إلى الجنسية الفرنسية وحق التمتع بالمواطنة التي تمكنهم من الحريات وارتياد المجال العام المؤسساتي. فهناك إنسان مواطن، وإنسان أهلي، هذا الأخير يتعرف على نفسه من خلال شريعة الأحوال الشخصية فقط، بينما المواطن الفرنسي يتعرف على نفسه من خلال منظومة القوانين التي تصدر عن الهيئات التشريعية والتمثيلية وتخاطبه لأنه تعنيه في البداية والسياق والنهاية. ومن وحي ومجمل هذه العناصر التي ترُصُّ في طياتها إمكانية النهوض، يختصرها ابن نبي في هذه المقولة.. " حتى لا نكون عرضة للاستعمار يجب أن لا نكون عرضة لقابلية الإستعمار " .

الهوامش

1- Malek Bennabi, Mémoires d'un témoin du siècle (1905-1973), présentation et notes Noureddine Boukrouh, éd. Samar, Alger, 2006.

- M. Bennabi, Pourritures, Dar El Oumma, t. 1(1932-1940), Alger, 2007.

٢- إقتصر بحث موضوع النهضة العربية أو الإسلامية إلا على الخطاب أو الفكر المكتوب باللغة العربية، على ما فعل المفكر محمد عابد الجابري في كل كتبه و خاصة كتابه ، الخطاب العربي المعاصر ، المركز العربي للوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢ .

٣- لا نزال في عالمنا العربي، نغفل و لا نلتفت كثيرا للفكر الإسلامي غير العربي الذي تم في آسيا بمختلف لغاتها و تعبيراتها خاصة منها العثمانية والتركية الحديثة والفارسية والإيرانية الحديثة والأردية وغيرها التي تتواصل بقوة مع الفكر الإسلامي الحديث وقلما تحتاج إلى ترجمة لأنها تكاد تُعَد تنويعا على الثقافة الإسلامية التي يوفرها الدين الإسلامي نفسه. فالتواصل بين الشرق والشرق ، عندما يكون النص هو القرآن الكريم سهل جدّا ليس فقط للتعريف بالثقافتين ،بل بتكوين كتلة تاريخية جديدة في عالمنا اليوم الذي لا يعترف ولا يقر إلا بالمجموعات الكبرى. في الحضارات الشرقية لا يستمد التشابه من التاريخ فحسب، بل من الواقع القائم ومن المستقبل القادم الذي يجب يوجد له حلا، لأن مهمة كبيرة تنتظر العالم كله في موضوع نهضة الإسلام العالمية.

٤- ظاهرة الثقافة الفرنسية وسط المثقفين و الكتاب الجزائريين المسلمين، ليست ظاهرة استلاب و لا مسخا ثقافيا و لا اغترابا أيديولوجيا، لأن عدد كبير من هؤلاء الكُتَّاب أبدعوا ثقافة حقيقية ساهمت بقوة رائعة في التعريف بالوضع الجزائري و بتاريخ الأمة و المجتمع، ناهيك عن اكتشاف حقيقة أصالة الشعب و خصائصه الذاتية. و كانت اللغة الفرنسية عند هؤلاء المبدعين وسيلة مدنية و ثقافية لمواجهة السلطة الإستعمارية في كافة تجلياتها، لا بل مواجهتها في العمق، على ما فعل مالك بن نبي نفسه عندما شرع في نهضة فكرية جزء منها ينتقد الوضعية الإسلامية و جزء آخر ينتقد الظاهرة الإستعمارية . قيام كمال أتاتورك بتغيير الحروف العثمانية إلى الحروف اللاتينية تدخل في مجال ما كان يلح عليه ابن نبي من ضرورة إبداع وسائل الحضارة كشرط لا مناص منه في النهضة الإسلامية الحديثة و المعاصرة.

٥- يشير هذا المصطلح في تجربة الإستعمار الفرنسي للجزائر منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى سياسة فرنسية ترمي إلى محاولة دمج المعمرين عبر اللوائح و القرارات و التشريعات في المؤسسات الفرنسية كمواطنين، ثم أعقب ذلك مطالبة الأهالي المسلمين بالمعاملة بالمثل و تطبيق القانون و العدالة و الحرية و المساواة

عليهم . و قـد ساد مـصطلح الاندمـاجية بـمعناه المُعـيب و المُسْتهـجن طوال فترة الإحتلال و ما بعد الإستقلال أيضا.

٦- نحـيل في هذا المقام إلى أهـم كتاب للمفكـر الهندي[البـاكستاني] محـمد إقبال، تجـديد التفكـير الديني في الإسلام، الـذي ترجمه الكـاتب و المفكر المـصري عبّاس محمود العقاد، ضمن اهتمام مثقفي و كتّاب و أدباء العالم الغربي بفكر محمد إقبال الذي استفـاد من فلسفة هنري بـرجسون القائمة على الـذاتية و الإنسانية أي روح الإنـسان و نفسيته فضلا على الحـدس كطريق آخر للحـقيقة و الحكم على الأشياء. فالمفكـر و المترجم لحظة إبداع واحدة جرت على مستوى النخبة المثقفة و لم تُكْتَب لها الانتشـار إلا بعد تخرُّج الآلاف مـن العرب من المؤسـسات الجامعيـة حيث صارت أفكار و كتابات محمد إقـبال موضوع بحوث و رسائل جـامعية و تمت حتى بلغات غير العربية من قـبل العرب أنفسهم. ينظـر، محمد إقبال، تجديـد التفكير الديني في الإسلام، تـرجمة عباس محـمود العقاد، مطـبعة لجنة التـأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، ١٩٥٥ .

٧- نورالدين ثنـيو، الشرق شرق و الغرب وقـد التقيا، القدس العـربي، ٢٢ يونيو/ جوان ٢٠٢٢ .

٨- نورالـدين ثنيـو، استئنـاف النظـر في شروط تقدم الـدولة الـعربيـة، القدس العربي،٢٥ شباط /فبراير ٢٠٢١ .

9- Malek Bennabi, le phénomène coranique, essai d'une théorie sur le Coran, préf. A. Draz, les Editions En-Nahdha, Alger, 1946.

١٠- يمثل كتاب " الظـاهرة القرآنيـة " ظاهرة فكـرية جديـدة في الخطاب المعاصر العربي مـنه و الغربي. فقد تنـاول مالك بن نبي القـرآن الكريم كظـاهرة في التاريخ المعاصر بما يحمل من أطر فكرية و مرجعيات ثقافية و لحظة تلتقي عندها المعارف و الـعلوم كلها بـما ييسر إمكانـية دراسة القـرآن الكريم كظـاهرة مستقلـة، نوعا من الإستـقلال، عن التراث العربي الكلاسـيكي ، بل باهتـمامات و توجَّهـات و تَطَلُّعات جديدة، قرآن معاصر من حيث المعالجة و البحث العلمي و من حيث فهمه و الإصغاء و التعبد به. دراسة القرآن الكريـم كموضوع بحث و من قبل مسلم و بلغة فرنسية.. كل شيء جديد فعلا.

11- Malek Bennabi, discours sur les conditions de la renaissance algérienne, Dar An-Nahdha, Alger, 1949.

١٢- محمـد بن عبد الوهـاب، كتاب التوحيـد، إدارة الثقافة و النـشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، (د.ت).

١٣- محمد عبده، رسالة التوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، ١٩٩٤، يحدد الكاتب و المفكر الإسلامي محمد عمارة محقق هذا الكتاب قيمة و أهمية "رسالة التوحيد" على الوجوه التالية:

- واحد من أهم نصوص الأستاذ الإمام، لخطر موضوعها و للمنهج التجديدي العقلاني المستنير الذي عالج به الأستاذ الإمام هذا الموضوع.
- وجود الروابط بين "العقائد" و بين "وظائفها" في واقع الإنسان.
- براءة الإسلام من الكهانة.
- إنزال الإسلام "الماضي" عن عرشه و إعدام قدسيته.
- انطواء الإسلام على كنوز هائلة لمن يملك البصر و البصيرة و يعرف كيف يستثمرها لأمته. (ص. ٨-١١).

١٤- شكيب آرسلان، لماذا تخلف المسلمون و لماذا تخلف غيرهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

١٥- نورالدين ثنيو، مالك بن نبي في القراءة الأولى، القدس العربي،١٣ يوليو/ جويلية ٢٠٢٢ .

١٦- هذا ما يذكره صراحة في مؤلفه "العفن" الذي سبقت الإشارة إليه، و هو الجزء الأول من مذكراته غير المنشورة .

١٧- يمكن العودة إلى سلسلة مقالات نورالدين بوكروح المثقف و الوزير السابق و تلميذ مالك بن نبي التي نشرها في موقع الأمة تحت عنوان حياة مالك بن نبي، و تعطي إحاطة وافية و قيّمة لحياة و فكر مالك بن نبي .Noureddine Boukrouh, la vie de Malek Bennabi, El Oumma.com, (1-34) 19 oct. 2020.

١٨- مالك بن نبي ، بين الرشاد و التيه، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢ (ط١.، ١٩٧٨). بين الرشاد و التيه، عنوان كتاب جمع مقالاته المفكر مالك بن نبي عام ١٩٧٢، و ترجمها إلى اللغة العربية رغبة منه في توسيع و نشر فكره إلى أجيال جزائرية جديدة. و حول قيمة و أهمية ما جاء في هذه المقالات يقول الأستاذ عمر مسقاوي مصدّر الكتاب و راعي ندوة و كتب مالك بن نبي ما يلي : " هذه المقالات تعكس أحداث الستينيات في الجزائر ، كما في العالم العربي و الإسلامي . و هي أيضا تطرح مشاكل العالم الثالث بعد الإستقلال السياسي فتسلط عليها أضواء مكاشفة تبرز أبعادها، و تثير في طريق الكفاح من أجل القضاء على هذه المشاكل. " (ص. ٧)

١٩- حول نصيب ابن باديس و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في بلورة مفهوم و معنى الدولة الحديثة في الجزائر، يمكن العودة إلى ، نورالدين ثنيو، إشكالية الدولة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية (١٩١٢-١٩٥٤)، المركز العربي للبحوث و

دراسة السياسات، الدوحة/ بيروت، ٢٠١٥، ص٢٩٩.- ,٤١٢ و حول النشاط العام لجمعية العلماء من ١٩١٢ إلى غاية ١٩٩١، يمكن العودة إلى كتاب/ أطروحة دكتوراه، Charlotte Courreye, l'Algérie des Oulémas, éd. La Sorbonne, Paris, 2020.

٢٠- عن التسامح و التعايش في المجال العام عند ابن باديس ، يمكن الرجوع إلى ، نورالدين ثنيو ، التسامح و التعايش الديني في تجربة ابن باديس الإصلاحية، المستقبل العربي، المركز العربي للوحدة العربية، بيروت، ع/ ٤٩٢، شباط/ فبراير ٢٠٢٠ .

21- M. Bennabi, vocation de l'Islam, ANEP, Alger, 2002 (1er éd. 1949), p. 54, 55.

٢٢- كتب الكاتب والمثقف رابح زناتي سلسلة من المقالات في جريدته "صوت الأهالي" La Voix indigène التي كانت تصدر باللغة الفرنسية، عام ١٩٣٧، منبهًا من خطر النشاط الذي تضطلع به الحركة الإصلاحية الجزائرية على مستقبل فرنسا في الجزائر . و قد جَمَعْتُها و ترجمها إلى اللغة العربية ، أنظر، نورالدين ثنيو، نقد الحركة الإصلاحية الجزائرية ، منشورات الأصالة، الجزائر، ٢٠٢٠ .

٢٣- حركة الشبان الجزائريين تضم مجموعة من الجزائريين على تفاوت ثقافتهم و علمهم يجمعهم تخرجهم جميعا من المدرسة التعليمية الفرنسية. و قد كانت اللغة الفرنسية وسيلتهم للمطالبة بالرفع من مكانتهم المادية و المعنوية و أبرز ممثلي هذه الحركة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر و فرحات عباس، صاحب أعظم بيان صاغه من أجل انتزاع حق الجزائريين في الدولة و السيادة و النظام الجمهوري. و لم يكن فكر مالك بن نبي بعيد عن هذه الحركة.

٢٤- تنظيم سياسي مهني للموظفين الجزائريين في المؤسسات التمثيلية الفرنسية في الجزائر. و هي ثلاث تنظيمات للمنتخبين المسلمين: ناحية وهران و ناحية الوسط و ناحية الشرق. و منها تخرج مناضلو الحركة الوطنية و تأسست أحزاب سياسية و جمعيات و نوادي أهلية تعنى بالجزائريين المسلمين نهاية العشرينيات من القرن العشرين ...

25- M. Bennabi, les grands thèmes, p. 18.

٢٦- من محاضرة لابن النبي تحت عنوان الحضارة ، قدمها يوم ٩ جانفي ١٩٦٤، بالجزائر العاصمة . M. .Bennabi, les grands thèmes, El Borhane,, Alger, 2014, p.8.

٢٧- جبران خليل جبران أديب مبدع باللغة الإنجليزية ساعدته و ساعدت جيله على تليين اللغة العربية و تيسير ولوجها إلى عصر الجمال و العلم و التقنية الحديثة. كما أن كتابات أدباء و كتاب المهجر من تجليات الحداثة في التاريخ العربي الحديث و المعاصر. و حركة التنقل بين الدول و المدن ظاهرة داخل المجتمعات الأوروبية ضمن

الحـراك المعرفي و العلمي بين الأوربيـين أنفسـهم كأفضل سبـيل إلى تكامل المعرفة و إتمـامها و تغطية جـوانب النقص في الثقافـة الوطنية. و لعـل ظاهرة النهل من معين الفكر و الثقافة الألمـانية كانت قد لازمت الفكر الـفرنسي طوال الصراع التاريخي بين الأمتين الفـرنسية و الألمـانية، حتـى ليبدو أن التقـدم الفرنسي يعـزى في الجوهر و الأسـاس إلى الفكر الألمـاني خاصة مـنه الفلسفة الحـديثة و المعـاصرة. و قد يكون العكس صحيح، بناء على عبارة فـريدريك نيتشه، أن انتصار ألمـانيا على فرنسا عام ١٨٧٠، مرده بالكامل إلى الفكر الفرنسي، و من هنا خطورة هذا الانتصار المزعوم.

28- M. Bennabi, les grands thèmes, op. cit. p. 122.

29- Ibid. p. 125

٣٠- للمزيـد من التوضيح لهذا المصطلح كما حـدده و تداوله ابن نبي يمكن العودة إلى فصل : مجتـمع ما بعد المـوحدين، و تنـاول فيه مباحث ثلاث: ظـاهرة الدورات المتوالية ، إنسان بعد الموحدين، أول اتصال بين أروبا و الإسلام .

M .Bennabi, vocation de l'Islam, chapitre la société post-almohadienne , p. 21-39 .

31- M. Bennabi, Ibid., 11,12.

32- M. Bennabi, les grands thèmes, op. cit. p. 25

33- Ibid. p. 28

34- Ibid. p. 29